

سُورَةُ الْعَنكَبُوتِ



النَّزُولُ: مَكْيَةٌ.

الْمَقَاصِدُ:

- ١ - تَحَدِّي الْمُشْرِكِينَ بِالإِتِيَانِ بِمَثَلِ سُورَةِ مُنْهَى.
- ٢ - وَعْدُ اللَّهِ بِنَصْرِ الْمُؤْمِنِينَ.
- ٣ - مُجَادَلَةُ أَهْلِ الْكِتَابِ بِالِّتِي هِيَ أَحْسَنُ.
- ٤ - الْاسْتِدْلَالُ عَلَى الْبَعْثِ.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْمَ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا إِعْمَانًا وَهُمْ لَا يُفَتَّنُونَ ﴾٢٦٠ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾٢٦١ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾٢٦٢ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتِيٍّ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾٢٦٣ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾٢٦٤ وَالَّذِينَ إِمَانُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنُبَرِّئَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾٢٦٥﴾

التفسير:

١ - تقدّم تفسير الأحرف المقطعة في أول سورة البقرة، وأنها من إعجاز القرآن.

٢ - الله سبحانه يبتلي عباده المؤمنين بحسب ما عندهم من الإيمان، فهل ظنَّ الناس أن يُتركوا وشأنهم، ويسلِّموا حين يقولون: نحن مؤمنون، فلا يتعرّضون لاختبار صدق قولهم، ولا يُبتَلون في أموالهم وأنفسهم. لا، ليس الأمر كذلك، فلا بدّ أن يختبرهم ربُّهم حتى يتبيّن مدى صدقهم والتزامهم. وحكم الآية باقٍ في هذه الأمة.

٣ - إنَّ الفُتُونَ بسبب الانضواء في ركب الإيمان جرى على سُنَّة الله فيما سَلَفَ من الأمم، فلا يجوز استعظام الفتنة والذُّهُولُ عن سُنَّة الله. وأسنَد الفُتُونَ إلى الله؛ فهو خالقُ أسبابه، وهو قادر على صرفه، فمنْ لم يعبأ بالفتنة، وبقي على اتّباع الهدى، فقد تبيّن رسوخ إيمانه، ومنْ تزلَّ إيمانه

خوف الفتنة فقد تبيّن غير ذلك. وقُسماً لِيَعْلَمَنَّ اللَّهُ عِلْمًا ظاهراً للخلق - وقد كان في عِلْمِ اللَّهِ أَنَّهُ سِكُونٌ - صِدْقُ الصادقين، وَكَذِبُ الْكاذِبِينَ.

٤ - مَضَتِ الآيات السابقة على تثبيت المؤمنين في مواجهة الفتن الثالث، ويعقبها وعيد المشركين بأنَّ ما يعملونه من فُتون المسلمين معلوم لدينا، ولن نُفْلِتَهُمْ، أيظن أولئك أن يُعْجِزُونَا، فلا نَقْدِرُ عَلَيْهِمْ؟ أَيُعتقدُونَ أَنَّهُمْ شَفَوْا غَيْظَهُمْ مِنْ أُولَائِنَا فَغَلَبُونَا؟ بَئْسَ الْقَضَاءُ قَضَاؤُهُمْ.

٥ - مَنْ كَانَ يَأْمُلُ فِي لِقاءِ اللَّهِ، وَيَتَرَقَّبُ الْبَعْثَ، وَأَعْدَدَ الْعَدَّةَ لِذَلِكَ مِنْ يقينٍ وَعَمَلٍ صَالِحٍ، فَإِنَّ الْوَقْتَ الَّذِي قَدْرَهُ اللَّهُ فِي عِلْمِهِ لِلحسابِ آتٍ لَا مَحَالَةَ إِنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ كُلَّ قَوْلٍ، وَيَعْلَمُ بِكُلِّ فَعْلٍ.

٦ - وَمَنْ صَبَرَ عَلَى ضِرْبَ الْأَذِيِّ، وَثَبَتَ عَلَى دِينِ اللَّهِ، وَسَعَى فِي إِعْلَاءِ كَلْمَةِ اللَّهِ، فَإِنَّمَا يُقْدِمُ الْخَيْرَ الْجَزِيلَ لِنَفْسِهِ، وَيَرْفَعُ اللَّهُ قَدْرَهُ فِي الْآخِرَةِ، وَلَيْسَ ثَمَّةَ نَفْعٌ يَتَهَيَّءُ إِلَيْهِ؛ لَأَنَّ اللَّهَ غَنِّيٌّ عَنْ أَعْمَالِ الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ.

٧ - وَعْدُ وِيشَارَةٍ مِنَ اللَّهِ يَخْصُّ بِهِمَا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَأَتَّبَعُوا الإِيمَانَ بِعَمَلٍ صَالِحٍ. قَسْمًا لِنَتَجَاجَوْزَنَّ عَنْ خَطَيَّاتِهِمُ الَّتِي بَدَرَتْ مِنْهُمْ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ جَزَاءً أَحْسَنَ أَعْمَالِهِمْ.

الفوائد والاستنباطات:

١ - في الآية (٢) إِخْبَارٌ مُسْتَقْبَلٍ بِأَنَّ اللَّهَ سِيَتْلِي وَيَخْتَبِرُ الْمُؤْمِنِينَ.

٢ - مِنْ سُنَّتِ اللَّهِ ابْتِلَاءُ الْمُؤْمِنِينَ؛ لِيَعْلَمَ صِدْقَهُمْ. وَهَذَا الاختبارُ لِيُسَمِّعَ خاصًاً بِهَذِهِ الْأُمَّةِ.

٣ - قال ابن عطية: «وَهَذِهِ الْآيَةُ وَإِنْ كَانَتْ نَزَلتْ بِهَذَا السَّبَبِ، وَفِي هَذِهِ الْجَمَاعَةِ، فَهِيَ بِمَعْنَاهَا بَاقِيَةٌ فِي أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، مُوجَدٌ حُكْمُهَا بِقِيَةِ الدَّهْرِ». (المحرر الوجيز: ١٢/١٩٩).

٤ - لِيَسَ فِي مُكْتَبَةِ الْذِينَ يَجْتَرِحُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يُفْلِتُوا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ.

٥ - اللَّهُ عَزَّلَهُ غَنِّيٌّ عَنْ خَلْقِهِ، وَمَنْ حَمَلَ نَفْسَهُ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ أَفَادَ نَفْسَهُ.

وَوَصَّيْنَا إِلِّا نَسَنَ بِوَالدِّيهِ حُسْنًا وَإِنْ جَهَدَاكَ لِتُتُشْرِكَ بِمَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطْعِعُهُمَا إِلَىٰ
مَرْجِعُكُمْ فَإِنِّي شُكْرٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ أَمْنَوْا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي
الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾ وَمَنِ النَّاسُ مَنْ يَقُولُ إِيمَانَكَا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ
اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِّنْ رَّبِّكَ لِيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْلَئِسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ
الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ أَمْنَوْا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا
لِلَّذِينَ آمَنُوا أَتَتِّعْنَا وَلَنَحْمِلْ خَطَبِكُمْ وَمَا هُمْ بِحَمِيلِنَّ مِنْ خَطَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ
إِنَّهُمْ لَكَذِيبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُّنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُؤْسِنَنَّ يَوْمَ الْقِيَمةِ عَمَّا
كَانُوا يَفْرُونَ ﴿١٣﴾

٨ - سبب النزول:

أخرج الطبرى بسنده الحسن عن قتادة، قال: «نزلت في سعد بن أبي وقاص، لما هاجر أمه: والله لا يُظُلني بيته حتى يرجع، فأنزل الله أن يُحسن إليهما، ولا يطيعهما في الشرك». (جامع البيان ١٨/٣٦٣، والتفسير الصحيح ٤/٦٥).

التفسير:

وصية من الله للإنسان بوالديه أن يَبَرِّهُما، ويعاملهما معاملة حسنة تليق بما بذلاه في تنشئته ورعايته، وفاءً بحقهما، وإكراماً لهما. وقد يحدث من خلال البر بهما أن يُلْحَّا عليك، ويبذل الجهد في سبيل حَمْلِك على الإشراك بالله، فلا تمثل لهما، ولكن لا تعاملهما بالإساءة لأجل إشراكهما بالله؛ لأنَّ عقابهما مُفَوَّض إلى الله، فأخْرِحُهُم بما كَسَبُوا في حياتهم الدنيا، ثم أُجازيهم على ذلك.

٩ - إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَسَلَكُوا سَبِيلَ الْأَعْمَالِ الْمَوْافِقةِ لِهِدِيهِمَا،
قَسْمًا لَنُدْخِلَنَّهُمْ - بِمَا لَدِنَا مِنِ الْعَظَمَةِ - فِي عَدَادِ أَهْلِ الصَّلَاحِ الْكَامِلِينَ.

١٠ - هَذَا حَالٌ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا بِمَكَةَ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَصْبِرُوا عَلَى
الْأَذَى وَالْفِتْنَةِ، فَرَجَعُوا إِلَى الشَّرِكِ، وَأَضَافُوا إِلَى ذَلِكَ أَنَّهُمْ كَتَمُوا ذَلِكَ عَنْ

ال المسلمين ، فهؤلاء استنزلهم الشيطان ، فجمعوا بين صفاتي الكفر والنفاق . إنَّ هؤلاء تَعَرَّضوا للأذى لأجل إيمانهم ، ولكنهم أصحابهم الجزع ، وسَوَّوا بين عذاب الناس وعذاب الآخرة . إنهم بذلك يعتقدون أنَّهم يَتَوَقَّون الفتنة . ويكشف الله ﷺ حقيقة هؤلاء في تماديهم في النفاق ، فإذا لمسوا نصراً من ربكم للدعوة لِيَقُولُنَّ : إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ، ظنًا منهم رَوَاج نفاقهم ، وبهذا يتبيَّن كَذِبُهُمْ ، وَأَنَّ اللَّهَ مُظْلِعٌ عَلَى ضَمَائِرِهِمْ . أَوْلَى اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا يُكِنُّهُ النَّاسُ فِي خَفَايَاهُمْ ، وَلَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَّةٌ؟

١١ - خُصَّ فريقان مِمْنَ اشتمل عليهما عموم قوله : ﴿الْعَالَمِينَ﴾ المتقدم ، اهتماماً بهما ؛ لأنَّ العلم بما في الصدور يترتب عليه الجزاء المكافئ . وقسمًا لِيَعْلَمَنَّ اللَّهُ عِلْمًا ظاهراً للناس حقيقة الذين آمنوا ، وحقيقة الذين نافقوا .

١٢ - يمضي المشركون في محاولاتهم المتكررة لدُفع فريق من المسلمين إلى الرِّدَّةِ مِمْنَ لَمْ يقدروا على فتنتهم ، وهم الآن يُثِرُونَ مغَالطاتٍ تُبَيِّنُ عن جهلٍ وغُرورٍ ، إذ زَعَمْتُ فَتَهُمْ أَنَّهُمْ إِذَا بُعْثُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فسُوفَ يَكُونُونَ سادِهِ إِذَا حُمِّلُوا تَحْمِيلًا ، أي : إِنَّ لَدِينَاهُ قَدْرَةً عَلَى حَمْلِ التَّيْعَةِ عَنِ الْآخَرِينَ ، وسُوفَ نَحْمِلُ عَنْكُمْ أَثَامَ خَطَايَاكُمْ إِذَا اتَّبَعْتُمْ هَذِينَ . وقد حكى الله عنهم بلا مِنْهُمْ ﴿وَلَنَحْمِلُ﴾ لِإِفَادَةِ مَا تضَمَّنَتْ دُعَوْتُهُمْ ؛ لأنَّ صيغةَ أَمْرِهِمْ أَنْفَسَهُمْ بِالْحَمْلِ أَكْدُ من الخبر عن أنفسهم . وهذا القول من هؤلاء لا يكون بحالٍ ، فما هم بحاملين أيَّ شيءٍ من الآثام ، وإنَّ كَذِبَهُمْ محققٌ .

١٣ - فإذا كان هؤلاء كاذبين في دعواهم فإنَّهم غيرُ ناجين من حَمْلِ تِبَاعَتِ لِأَقْوَامَ آخَرِينَ ، وهم الذين انساقوا معهم عندما سَوَّلُوا لَهُمُ الشُّرُكُ بالله . إنَّ هؤلاء الكاذبة الذين يتوهّمون في أنفسهم القدرة على حَمْلِ الآثام عن فريق المؤمنين لَحَامِلُونَ أثقال الشقاء والعناء يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّهَا ذُنُوبُ الَّذِينَ أَضَلُّوهُمْ ، بالإضافة إلى ما حَمَلُوهُ جَرَاءَ شُرُكَهُمْ . إنَّهُمْ مُؤَاخِذُونَ بِجُمِيعِ مَا اخْتَلَقُوهُ مِنِ الْإِفْرَاءِ الناجم عن تضليل أتباعهم ، ومحاولة تضليل المسلمين بدعاهم .

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - لا طاعة لمخلوقٍ - أياً كان - في معصية الخالق .
- ٢ - في الآية (١٠) إخبار مستقبليٌ عن ضعف فئة من الناس يؤمنون بالله ،

إِنَّمَا يَعْذَبُ الظَّالِمِينَ إِذَا أَذَاهُمْ
أَذَاهُمْ مَنْ يَرِيدُونَ وَلَا يَصْبِرُونَ عَلَى الْأَذِيَّةِ
أَذَاهُمْ مَنْ يَرِيدُونَ وَلَا يَصْبِرُونَ عَلَى الْأَذِيَّةِ

٣ - يتحمّل قادة الدعوات الباطلة آثام أنفسهم، وآثام من أضلُّوهم، دون أن ينقص شيء من آثام تابعيهم.

٤ - يحرِّضُ أهل الدعوات الباطلة على إغواء المؤمنين، وهم يستعملون أساليب من الدعاية الباطلة؛ لتزين ما دعوا إليه.

٥ - عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ دعا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أَجْرِهِ، وَمَنْ دعا إِلَى ضَلَالٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْأَثْمِ مِثْلُ أَثْمِهِ، وَمَنْ دعا إِلَى حِلْقَةِ حَسَنَةٍ أَوْ سَيِّئَةٍ، وَمَنْ دعا إِلَى هُدًى أَوْ ضَلَالٍ بِرْ قَمْ (٢٦٧٤)، (٢٠٦٠ / ٤).»

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَمَّا فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخْذَهُمُ الظُّفَافُ
وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١﴾ فَأَبْيَحْنَاهُ وَأَصْبَحَ السَّفِينَةَ وَجَعَلْنَاهَا ءَايَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ وَإِنَّهِمْ إِذَ
قَالَ لِقَوْمِهِ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَنَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ
مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِنَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ
فَأَبْشِغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَأَعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥﴾ وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ
كَذَّبَ أُمُّمٌ مِّنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلَغَ الْمُبِينَ ﴿٦﴾ أَوْلَمْ يَرَوْا كَيْفَ
يُبَدِّئُ اللَّهُ الْحَقَّ ثُمَّ يُعِيِّدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾

التفسير:

١٤ - يأتي الحديث عن أول رسول لأهل الأرض، وعن مدة طويلة قضها بين يدي قومه - ألف سنة إلا خمسين عاماً - للدلالة على مدى مصابرته على أذى قومه. وقد طوى السياق الحكم على قومه بالتكذيب والضلال، وأبرز خاتمتهم، وهي هلاكهم بالغرق بسبب ظلمهم لأنفسهم. وفي هذا إيماء للمعرضين عن دعوة محمد صلى الله عليه وسلم بما يتظرون لهم نتيجة تعنتهم.

١٥ - فإذا كان ما تقدّمَ مصيرَ المكذبين فإنَّ الناجين هم نوح والذين آمنوا معه، وأمّا السفينة فقد بقيت مدة طويلة على مَسْهِدٍ من الناس؛ علامَةً على وقوع الطوفان عذاباً من الله للمكذبين، وهي كذلك حُجَّةٌ للمؤمنين.

١٦ - كما أتنا أرسلنا إبراهيم، إذ مضى يسعى في هداية قومه قائلاً لهم: أخلصُوا العبادة لله وحده، واتّقُوا عقابه. وهذا النهج الذي أنسّحكم به خير لكم من الشقاء الذي تعيشون فيه، إن كنتم تعلمون ما تُميّزون به ما ينفعكم.

١٧ - أنتم - أيها القوم - تهجرون عبادة الله، وتعكفون على عبادة أحجار تنحوتُنها بأيديكم على هيئة صور لا إدراك لها، وتحتلقون لها أخباراً ومناقب موهومة مكذوبة. إنَّ هذه الأوثان التي تعبدونها من دون الله لا تستطيع أن تمنحكم أيَّ ضربٍ من ضروب الرزق، وينبغي أن تلتمسوا من الله الرزق الذي فيه قِوامُكُم، وأن تُخُضُّوا بالعبادة الخالصة والشகر الجزيل على آلائه، وهو الذي إليه معادُكُم؛ لِيُجَازِيَ عباده على أعمالهم.

١٨ - هذا خطاب من الله سبحانه لمشركي قريش وغيرهم من المكذبين، واقعٌ في أثناء مقالة إبراهيم لقومه وجوابهم له: إن يكن منكم تكذيبٌ وإعراض عن دعوة نبيّنا محمد ﷺ فيما دعاكم إليه من إخلاص العبادة لله وحده، فإنَّ لكم سَلْفًا في أجيالٍ مَنْ قبلَكم، فأصابهم سَخْطُ الله لما اجترحوه من السيئات، ولا نُكَلِّفُ رسولَنا إلا تبليغَ الرسالة تبليغًا واضحاً.

١٩ - أولم يعلم هؤلاء المكذبون للبعث مظاهر قدرة الله في خلقه، فهو الذي يُنشئُ خلقه من العدم، ثم يعيدهم بقدرته من بعد فنائهم خلقاً سوياً كما كانوا. إنَّ ذلك هَيْنَ يسير على الله، فلا يتعدّر عليه شيء.

الفوائد والاستنباطات:

١ - لا عِبْرَةٌ بالعدد قليلاً أو كثيراً في صدق الدعوات، فقد يبذل الداعية جهداً كبيراً في دعوته، ولا يلقى ثمرة ممَّنْ يدعوه.

٢ - قال ابن عادل في الآية (١٤): «رُوعِيَتْ هنا نكتة لطيفة، وهو أنَّ غَيْرَ بين تميّزِي العدد، فقال في الأول: ﴿سَنَةٌ﴾ وفي الثاني: ﴿عَامًا﴾ لئلا

يُثقلُ اللَّفْظُ - أي: في التَّكْرَارِ. ثُمَّ إِنَّهُ خَصَّ لِفْظَ الْعَامِ بِالْخَمْسِينِ إِيذانًاً بِأَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ لَمَا اسْتَرَاحَ مِنْهُمْ بَقِيَ فِي زَمِنٍ حَسْنٍ، فَالْعَربُ تُعْبِرُ عَنِ الْخَصْبِ بِالْعَامِ، وَعَنِ الْجَدْبِ بِالسَّنَةِ» (اللَّبَابُ: ١٥) (٣٢٥/١٥).

٣ - نَصْرُ اللَّهِ لِلدعَوَاتِ لِيُسْمِي مَرْهُونًا بِكُثْرَةِ أَعْدَادِ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَدْ يَتَحَقَّقُ النَّصْرُ إِنْ قَلَّ عَدْدُ الْمُؤْمِنِينَ.

٤ - فِي قَوْلِهِ: «إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» إِشارةٌ إِلَى أَنَّ أَهْمَى الصلةِ بِاللَّهِ لَا يَفْقَهُ آثارُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقُ ثُمَّ أَنَّ اللَّهَ يُنْشِئُ النَّشَاءَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢١﴾ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَحْمِمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُنْقَلَبُونَ ﴿٢٢﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِإِيمَانِ اللَّهِ وَلِقَاءِهِ أُولَئِكَ يَسْوُونَ مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُمُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذَّاتِ لِقَوْمٍ يُومَئِنُونَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ إِنَّمَا أَنْخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَنَّا مَوْدَةً بَيْنَكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِعَصْبَى وَيَلْعَبُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَا وَنَّتُكُمُ النَّارَ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٢٦﴾ فَعَامَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَوَهَبَنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ الْشُّوَّةَ وَالْكَنْبَرَ وَإِنَّهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لِمَنْ أَصْلَحَ حِلَانَ ﴿٢٨﴾﴾

التفسير:

٢٠ - أَيُّها الرَّسُولُ، قُلْ لِمَنْ يُنْكِرُ بَعْثَ الْخَلَائِقِ، وَوَقْوفَهُمْ بَيْنَ يَدِي خَالقِهِمْ: تَأْمَلُوا فِي هَذِهِ الْأَرْضِ قَرِيبَهَا وَبَعِيدَهَا، وَارْجِعُوا الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ فِي تَكْوِينِهَا؛ لِتَفَطَّنُوا إِلَى أَنَّ الَّذِي أَوْجَدَهَا - بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُنْ - قَادِرٌ عَلَى إِعَادَتِهَا، وَإِنْشَائِهَا النَّشَاءَ التَّالِيَةَ الْآخِرَةَ، فَالَّذِي لَمْ يُعْجِزْهُ الْإِبْدَاءُ لَا تُعْجِزُهُ الْإِعَادَةُ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى الْبَعْثِ وَعَلَى كُلِّ مَا يَرِيدُ.

٢١ - إِنَّهُ سُبْحَانَهُ يُعَذِّبُ مَنْ يشاءُ مِنْ عِبَادِهِ؛ بِسَبِبِ مَا اجْتَرَحُوا مِنْ سَيِّئَاتٍ، وَيَرْحَمُ مَنْ يشاءُ مِنْ أَمْنٍ وَعَمَلٍ صَالِحًا، وَإِلَيْهِ سُوفَ يَرْجِعُ النَّاسُ يَوْمَ الْمَعَادِ.

٢٢ - إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى الْإِحْاطَةِ بِالْعَصَابَةِ، فَلَيَسُوا بِمُفْلِتَيْنِ مِنْ عَقَابِهِ، وَلَيَسْ لَهُمْ مَوْتٌ لَّيُمْنَعُهُمْ مِنْهُ، سَوَاءٌ فِي فَسِيحِ الْأَرْضِ أَوْ فِي أَجْوَاءِ السَّمَاوَاتِ، وَلَمَّا آتَيْهُمْ مِنَ الْأَنْفَلَاتِ بِأَنْفَسِهِمْ فِي أَيِّ مَكَانٍ، أَعْقَبَ ذَلِكَ بِتَأْيِيسِهِمْ مِنْ سَعْيِ غَيْرِهِمْ؛ لِيُشْفَعَ لَهُمْ فِي دَفْعِ غَضْبِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، فَلَيَسْ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ أَحَدٌ يَلِيهِ أَمْرُهُمْ، أَوْ ظَهِيرَ يَحْمِي عَنْهُمْ.

٢٣ - يَتَوَعَّدُ سُبْحَانَهُ أُولَئِكَ الْجَاهِدِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَالْمُنْكَرِينَ لِبَعْثِ الْخَلَائِقِ بَيْنَ يَدِي رَبِّهِمْ. إِنَّهُمْ اسْتَحْقَقُوا الْيَأسَ مِنْ رَحْمَتِهِ وَمَغْفِرَتِهِ، كَمَا اسْتَحْقَقُوا عَذَابَهُ الْمَوْجِعِ.

٢٤ - يَعُودُ سِيَاقُ الْآيَاتِ إِلَى نَبِيِّ اللَّهِ إِبْرَاهِيمَ بَعْدَ هَذَا التَّنْبِيهِ عَلَى بَعْضِ الْحَقَائِقِ، فَقَوْمُهُ أَصْبَيْوُا بِصَدْمَةٍ بَعْدِ مَوْقِفِهِمْ مِنْهُمْ، وَعَزَّمُوا عَلَى إِتْلَافِهِ، وَكَانُوا بَيْنَ مُرَجِّحٍ لِلْقَتْلِ وَمُرَجِّحٍ لِلْإِحْرَاقِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ أَنْجَاهُمْ مَمَّا أَعْدُوهُ لَهُمْ مِنْ سَعِيرٍ أَبْطَلَهُ اللَّهُ . إِنَّ فِي ذَلِكَ الْأَنْجَاءِ آيَاتٍ مُتَعَدِّدةٍ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ الْبَاهِرَةِ، وَتَصَدِّيقُ وَعْدِهِ، وَكَرَامَةِ رَسُولِهِ، وَتَسْخِيرِ مَخْلوقَاتِهِ لَهُ . بَيْدَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ يُصَدِّقُ بِهَا الْمُؤْمِنُونَ، وَيُعْرِضُونَهَا مَنْ لَمْ يَخُالِطِ الْإِيمَانَ قُلُوبَهُمْ .

٢٥ - وَيَتَابُعُ إِبْرَاهِيمَ ﷺ حَدِيثَهُ مَعَ قَوْمِهِ قَائِلًا لَهُمْ: أَنْتُمْ بِعِكْوفِكُمْ عَلَى هَذِهِ الْأَوْثَانِ، وَصَرْفُكُمُ الْعِبَادَةَ لَهَا، إِنَّمَا تَتَخَذُونَهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا سَبِيلًا لِلتَّوَادِّ بَيْنَكُمْ، وَالْتَّوَاصُلِ لِاجْتِمَاعِكُمْ عَلَى عِبَادَتِهَا وَخَدْمَتِهَا، وَتَخْشُونَ مِنْ غِيَابِ الْمُوْدَةِ فِيمَا بَيْنَكُمْ إِنْ هَجَرْتُمُوهَا . فَمَا عَاقِبَهُمْ هَذَا النَّهَاجُ الْجَائِرُ وَالْمُتَعَنةُ الْعَابِرَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ إِنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الْغَافِلِينَ سُوفَ يُعَادُونَ بَعْضَهُمْ بَعْضًا بِالْكُفَّارِ وَالْجَحَودِ، وَيَتَبَرَّأُ الْسَّابِقُ مِنَ الْلَّاحِقِ، وَيَتَوَاجَهُونَ بِالشَّتَائِمِ وَاللَّعْنِ، وَلَكِنَّ هَذَا لَنْ يَنْفَعُهُمْ؛ لِأَنَّ سَعِيرَ النَّارِ يَنْتَظِرُهُمْ، وَلَيَسْ ثَمَةُ مَنْ يُدْفَعُ عَنْهُمْ هَذَا الْخَرْزِيَّ وَالْجَزَاءِ .

٢٦ - ويُصَدِّق لوط برسالة إبراهيم، ويتبّعه. وحملة ﴿فَامَنَ لَهُ لُوطٌ﴾ مُتّرّضة في ثنایا الإخبار عن قصة إبراهيم. ثم يعلن إبراهيم مفارقة الديار والأهل مهاجراً إلى رب العزيز الذي لا يُغالب، الحكيم في تدبّره وصنعه.

٢٧ - وأكْرَمَنَا إبراهيم بولٍ صالح هو إسحاق، وبحفيدٍ هو يعقوب، وقدَرْنَا في ذرية إبراهيم الأنبياء ومعهم الكتب، فالتوراة والإنجيل والزبور والقرآن كُتبُ الهدى، نزلت على أنبياء من ذريته الطاهرة. وقد جمع الله له ثوابين. ثواب الدنيا - بخُذلان أعدائه، ووفرة النسل، وحسن السمعة - وثواب الآخرة، فسوف يكون فيها من أكابر أهل الصلاح.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - ضَعْفُ البَشَرَ أمام قدرة الخالق، مهما بلغوا من الإمكانيات والقدرة.
- ٢ - من شأن الطغاة مقاومة الدعاة، وإيذاؤهم بشتى ضروب الأذى، والصبر من صفات المؤمنين.
- ٣ - قد يحصل بين أهل الباطل مودة يُحْمُون من خلالها باطلهم، ويتحرّكون في ظلّها؛ للانتصار على أهل الحق.
- ٤ - قد يُعَجِّلُ الله للمؤمن بعض جرائمه في الدنيا.
- ٥ - الهجرة إلى الله عمل صالح؛ لأنَّ المرء يدع فيها ما أَلفه.

﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَحْشَةَ مَا سَبَقَ كُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ
الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَيْتُكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّكِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ
فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَئْتَنَا بِعَدَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾
قَالَ رَبِّ أَنْصُرِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسْلَنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا
مُهَلِّكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَلَمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا
نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتُهُ كَانَتْ مِنَ الْغَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّا آتَنَ
جَاءَتْ رُسْلَنَا لُوطًا سَوْتَهُمْ وَضَافَكَ بِهِمْ دَرَعاً وَقَالُوا لَا تَخْفُ وَلَا تَخْرُنْ إِنَّا مُجْهُوكَ
وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَافِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا
مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُدُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيْنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾

التفسير:

٢٨ - واذكر - أيها الرسول - عبدها الصالح لوطاً، إذ شَنَعَ على قومه هذا العمل القبيح الذي دأبوا على ارتكابه، وبلغوا الغاية فيه، وهذه الفاحشة ابتدعواها ، إذ ليس لهم فيها سابقة في العالمين .

٢٩ - ويؤكد لوط إنكاره على قومه تَدَدَّ جرائمهم، فهم يأتون الرجال في أدبارهم، ويتصدّون للمارّين بالطرقات، فيختارون مَنْ يسلّبون أموالهم، أو يُكْرِهُونهم على ارتكاب الفاحشة، وأضافوا إلى ذلك أَنَّهم صَبَرُوا من تداهم الذي يجتمعون فيه مَجْمِعًا لتزيين الفاحشة، وَمُعِيناً على شيوخها. ولكن القوم لم ينفع فيهم التوجيه والتذكير، والتذكير بنعمة الله. فأجابوه وهم يسخرون: أين عذاب الله الذي تُوعِدُنا به؟ إن كنت صادقاً في دعواك فاتنا به.

٣٠ - وطلب لوط من ربّه أن ينصره عليهم؛ لِيُرِيهِمْ صِدْقَ ما بَلَّغُهُمْ من الرسالة. وَوَصَّفَ قومه بالمسدسين، وفي ذلك تمهيد للإجابة بالنصر؛ لأنَّ الله لا يحب المسدسين.

٣١ - مَضَتِ الملائكة نحو إبراهيم ﷺ تُبَشِّره بخبر سارٌ من الله أَنَّه سيرزقه إسحاق، ومن وراء إسحاق ولده يعقوب. ثم قالت له: إِنَّا عازمون

بأمر الله على إهلاك أهل قرية لوط (سدوم). ثم عَلَّلوا ذلك ليستأنس إبراهيم، وهو يعلم أنَّ عقاب الله لا يكون إلا على ذنب يقتضيه المذنب، فقد ظلمَ القوم أنفسهم بالكفر والفواحش، وظلموا الناس بترويعهم، وحملُّهم على ما يكرهون.

٣٢ - وخاف إبراهيم أن يشمل العقاب لوطاً، فأجابت الملائكة بأنهم أعلم بأحوال مَنْ في القرية، واستحقاق لوط النجاة؛ لأنَّهم بأمر الله يعملون، وقد عَلِمَت الملائكة بإذن ربهم أَلَا ينجو إلا لوط وأهله ما عدا امرأته، فستكون في الباقي من المُهَلَّكين.

٣٣ - وتَحُلُّ ملائكة العذاب بقرية لوط، ومَضَوا نحو لوط، فساءه قدُومُهم، إذ حَسِبَ أَنَّهم ضيوف من البشر، وقد يُصيِّبُهم من قومه أذىً وسوءً كما عَوَّدوه. فقالوا له: لا تَحْفَظْ علينا منهم، فلن يصلوا إلينا، ثم أخبروه بما عزموا عليه، وقدَّموا تأمِينَه قبل إعلامِه بعذاب قومه، ثم تأمِينَ أهله إلا امرأته، فهي في الباقي من المُهَلَّكين.

٣٤ - ويتابع الملائكة حديثهم عن إِنْزَالِهِمْ عذاباً مؤلماً من السماء يصيب قوم لوط، وذلك بسبب معاصيهم، وخروجهم عن سُوءِ الصراط.

٣٥ - ولقد أبقيَنا من القرية آثاراً دالة على أحوالها تُنبئُ عن ثمرة المعاشي؛ ليفيد منها ذوق العقول السليمة.

الفوائد والاستنباطات:

١ - السلوك الجنسي الشاذ عُرْضاً لِنِقْمَةِ الله العاجلة، وعاقبة المعاشي وخيمة.

٢ - لا يغفل الداعية عن مواجهة المفاسد الأخلاقية في مجتمعه بالنصححة والتوجيه. قال ابن عطية: «وقد توجد هذه الأمور في بعض عصاة أُمة محمد ﷺ فالتناهي واجب». (المحرر الوجيز: ٢١٧/١٢).

٣ - من حكمة الله أن يُؤْقيَ في ديار القوم الذين أصابهم عقاب الله آثاراً؛ لتكون موضع عبرة وتَذَكِّرة.

٤ - الاتصال بالصالح لا يستلزم من أن يكون المتصل صالحاً. صحيح

أنَّ الاتصال بالصالح من أسباب الصلاح، لكنه ليس بلازم، بدليل هلاك امرأة لوط.

﴿وَإِلَى مَدِينَ أَخَاهُمْ شَعِيبًا فَقَالَ يَقُولُونَ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَرْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْنَ فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَنَهُمُ الرِّجْفَةُ فَأَصْبَحُوْنَ فِي دَارِهِمْ جَحْشِينَ وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَرَّ لَكُمْ مِنْ مَسْكِنِهِمْ وَزَرَبَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّيْلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَقَرْوَنَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَنْ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَكِينِيَّةً ﴿٣٨﴾ فَلَمَّا أَخْدَنَا بِذَنْبِهِمْ فِي نَهْرٍ مِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخْذَنَهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيظْلِمُهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٩﴾﴾

التفسير:

٣٦ - وأَرْسَلْنَا إِلَى بَلَادِ مَدِينَ أَخَاهُ لَهُمْ - وَهُوَ شَعِيبٌ - لِيَكُونَ رَسُولًا نَاصِحًا لَهُمْ، وَمَضَى يَدْعُوْهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ الْوَاحِدِ، وَإِلَى تَرْقِيْبِ يَوْمِ الْبَعْثِ، وَالْوَقْوفُ بَيْنَ يَدِيِ اللَّهِ، وَنَبَّهَهُمْ لِلابْتِعَادِ عَنِ ضَرْبَ الْفَسَادِ، وَالْوَلُوغِ فِي مَسَارِبِهَا.

٣٧ - بَيْدَ أَنَّ قَوْمًا شَعِيبٌ عَارَضُوا دُعْوَتَهُ، وَأَصْرَرُوا عَلَى تَكْذِيْبِهِ، فَأَصَابَهُمْ زَلْزَالٌ مَدْرِّ، فَأَصْبَحُوا فِي مَسَاكِنِهِمْ صَرْعَى هَالَّكِينَ.

٣٨ - وَتَسْرُدُ الْآيَاتُ الْمُزِيدَ مِنَ الْأَقْوَامِ الْمَكْذُوبَةِ، فَتَبَيَّنَ مَصِيرُهُمْ، فَهَا هُمْ أَقْوَامٌ عَادٌ وَشَمُودٌ، وَمَنْ اطَّلَعَ عَلَى مَسَاكِنِهِمْ ظَهَرَ لَهُ الْخَرَابُ الَّذِي عَمَّهُمْ، وَخَلَّتْ هَذِهِ الْمَسَاكِنُ مِنْهُمْ. وَلَمْ يَلْقَوْا هَذَا الْمَصِيرَ إِلَّا بَعْدَ أَنْ بَلَغَ الشَّيْطَانُ مَقَاصِدَهُ فِي تَزْيِينِ مَا اجْتَرَأُوا عَلَيْهِ مِنْ سَيِّئَاتِهِ، فَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِعِقْلَهُمْ وَبِصَاعِدَهُمْ، وَنَشَأُوا فِيهِمْ ضَلَالٌ مُتَأَصلٌ جَعَلَهُمْ يَزْهُوْنَ، وَيُعْجَبُونَ بِمَا يَعْتَقِدُونَ.

٣٩ - وَكَمَا ضَرَبَ اللَّهُ الْأَمْثَالُ بِالْأُمَّالِ الَّتِي عَصَمَتْ رَبَّهَا، كَذَلِكَ ضَرَبَ الْمَثَلَ بِبَعْضِ الْأَفْرَادِ مِنَ الْعَتَةِ السَّابِقَيْنِ؛ لِيَكُونَ ذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ إِنْذَارٍ لِقَرِيشٍ وَغَيْرِهَا، فَقَدْ أَهْلَكَ اللَّهُ قَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ، وَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِمَا تَصْمِمُهُ رِسَالَةُ

موسى من الهدى، فكفروا واستعلوا في الأرض وتعاظموا فيها، ولكنهم ما كانوا ليُقلّلُوا من قبضة الله ونِقْمَتِه، بل كُنّا قادرين على الإحاطة بهم.

٤٠ - شرع في تفصيل صنوف الانتقام من الأقوام والأفراد الذين سَلَفَ ذُكْرُهم، وقرر أنَّ العذاب أصاب كلاًّ منهم على معصية اجترحها، من هؤلاء قوم أرسل عليهم ريحًا عاتية ترميهم بحجارة مهلكة، وهم قوم لوط، كما في التفسير الصحيح (٧١/٤)، وعند ابن كثير أنهم قوم عاد. (التفسير: ٥٤٣/٣). وأما الذين أهللوكوا بالصيحة فهم قوم ثمود، إذ أُخْمِدُتْ أصواتهم وحركتهم، ومن أصابه خَسْفُ الأرض هو قارون الذي تاه بنفسه بطراً ومَرَحاً. والذين أغرقهم هم فرعون ومنْ معه بعد أن استكبروا في الأرض. ومعاذ الله أن يكون ربنا قد ظلم أحداً مثقال ذرة، وإنما هؤلاء هم الذين ظلموا أنفسهم، فتسَبَّبُوا في عذابها، وجُرُوا العقاب إليها.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - ينظر: خريطة موقع قوم مَدِينَ، كما في الملحق.
- ٢ - تتعددُ أساليبُ عقاب الله للظالمين والمفسدين في الأرض.
- ٣ - قال الشيخ ابن عثيمين: «ما الضابط لتزين الشيطان؟ إذا كان العمل خلاف الشرع فهو من تزين الشيطان». (التفسير: ٥١٤/٦).

﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَنْهَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أُولَئِكَمْ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ أَنْهَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبَيْوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾٤١ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾٤٢ وَتَلَكَ الْأَمْثَلُ نَضْرُبُهَا لِلتَّائِسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ ﴾٤٣ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِيَّةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾٤٤ أَتَلُ مَا أُوحَى إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾٤٥﴾

التفسير:

- ٤١ - هذا مَثَلٌ لحال مَنْ يتَخَذُ الأوثان أولياء من دون الله يرجُون نفعَهم،

فحالهم كحال العنكبوت تتحذن نفسها بيتأً، فتحسب أنها تعتصم به ممَّن يعتدي عليها، فإذا هو لا يصمد، ويتمزق أمام أضعف مواجهة، فالمرشكون أشبهوا العنكبوت في الغرور بما أعدُوه، وأولياً لهم أشبهوا بيت العنكبوت في كونه لا يعني شيئاً. ومن المشهور أنَّ أضعف البيوت بيتها، واقتضى ذلك أنَّ مَن يعتقد في غير الله موئلاً له بعيد عن الرَّشد. ولو كانوا يعلمون أنَّ أولياءهم لا ينفعونهم في شيء ما اتخذوهم أولياء.

٤٢ - أعقب نفيه السابق لعلم المشركين إعلامُهم بعلم الله لدقائق أحوال الأصنام على اختلاف معتقد مَنْ يعبدُها. إنَّ الله يعلم أنَّهم ليسوا يدعون من دونه شيئاً ذا قدرٍ، فيصلح أن يسمى شيئاً. والله هو العزيز في انتقامه ممَّن جَحدَ به، الحكيم في صنعه.

٤٣ - ينعي الرب سبحانه على هؤلاء المشركين أنهم ليسوا جديرين بتقْهُم المعني التي قرِبُت إليهم بطريقة الأمثال، ويَمْتَنُ بها على الذين كَمَلُت عقولُهم، وقد عَلِمَ البلغاء أنَّ لكل مقام مقالاً.

٤٤ - يخاطب الله سبحانه المؤمنين، فهو الذي خلق السموات والأرض بالحق على نحوِ مُتَّقِنٍ، وكل شيء فيما بحسبان، وهو علامه وبرهان ساطع على وحدانيته وقدرته، وينبغي أن يتفكروا في عظمة خلقهما.

٤٥ - يخاطب الله سبحانه الرسول ﷺ بقوله: اتلُ القرآن الذي أُوحى إليك على الناس، واعملْ به، وأقم الصلاة بحدودها، وهي ركن عظيم، وفيها فوائد لِمَنْ يُؤَدِّيها، فهي تنهي عن تجاوز الحد الشرعي وهي تشتمل على ما يُذَكَّر بالله، كما تذَكَّر بلزم التباعد عن سخطه. والصلوات مُوزَّعة على أوقات الليل والنهار؛ ليتجدد التذكير بها. وهي تنهي عن الفحشاء والمنكر؛ لأنَّها من ذُكر الله، وذُكر الله أمر كبير، والله يعلم ما أنتم عليه من العمل، وسوف يحاسبكم عليه.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - بيت العنكبوت هو الضعيف وليس خبطه، وهذه دقة علمية تشهد بإعجاز هذا القرآن؛ لأنَّ بيت العنكبوت محروم من معاني المودة والرحمة التي يقوم على أساسها كل بيت سعيد؛ وذلك لأنَّ الأنثى في بعض أنواع

العنكبوت تقضي على ذَكْرِها بمجرد إتمام عملية الإخصاب، وذلك بقتله وافتراض جسده؛ لأنَّها أكبر حجماً وأكثر شراسة منه، وعندما يفقس البيض تخرج صغار العناكب لتتجدد نفسها في مكان شديد الازدحام بالأفراد داخل كيس البيض، فيبدأ الإخوة الأشقاء في الاقتتال من أجل الطعام أو من أجل المكان أو من أجلهما معاً، فيقتل الأخ أخيه وأخته، ويكرر مَنْ ينجو منها المأساة نفسها التي تجعل من بيت العنكبوت أكثر البيوت شراسة ووحشية. (من آيات الإعجاز العلمي: الحيوان في القرآن الكريم: زغلول النجار: ص ١٤٠ - ١٤٤).

٢ - تَضَمَّنَ بيان القرآن أساليب متعددة من القول؛ للتنبيه على مقاصده، ويضرب الله الأمثال للناس؛ ليتفعوا بها، وُيُشيروا عقولهم من خلالها.

٣ - في الآية (٤١) إخبار مستقبليٌ عن عجز آلَّه المشركين من أن ينفعوا أو يضرُّوا معبوديهم بشيء. وفيها إخبار مستقبليٌ آخر، وهو أنَّ هؤلاء المشركين لا يعلمون أنَّ أولياءَهم الذين يَدْعُونَهم من دون الله لا يستطيعون نَقْعَهُم ولا ضُرَّهُم.

٤ - خَلَقَ اللهُ السموات والأرض بالحق؛ ليدلَّ على سلطانه، ويُثبِّت شرائعه.

٥ - للصلَاةِ شأن عظيم في استقامة حياة مَنْ يُقيِّمها بحدودها الشرعية.

٦ - قال ابن عطية: «المُصلِّي إذا كان على الواجب من الخشوع والإختبات صَلَحَتْ لذلك نفسه وتَذَلَّلتْ، وخارمتها ارتقاب الله تعالى، فاطرد ذلك في أقواله وأفعاله، وانتهى عن الفحشاء والمنكر. ومنْ كانت صلاتُه دائرةً حول الإجزاء، لا خشوع فيها ولا تَذَكُّر، فتلك تترك صاحبها من منزلته حيث كان». (المحرر الوجيز: ٢٢٥/١٢).

﴿وَلَا يُحَدِّلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالْتِي هِيَ أَحَسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا إِمَانًا
بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَجُدُّ وَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾٤٦﴾
أَنَزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ أَنْيَنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ هَنُولَاءَ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا
يَحْمَدُ إِيمَانِنَا إِلَّا الْكُفَّارُونَ ﴾٤٧﴾ وَمَا كُنْتَ تَسْتَوِي مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُطْهُ بِمَيْنَاتِ
إِذَا لَآتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾٤٨﴾ بَلْ هُوَ أَيَّتُ يَنَنْتُ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَحْمَدُ
إِيمَانِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴾٤٩﴾

التفسير:

٤٦ - يُرشد الله تعالى المؤمنين، ويُعلّمهم الحكمة في التعامل مع اليهود والنصارى، فينهى عن جدالهم إلا بالطريقة المثلثى، والموعظة الحسنة؛ للوصول إلى الحق، إلا الذين ظلموا منهم بإعلان الحرب على المسلمين، فيعاملون بالغلطة والشدة. ثم بيّن الله تعالى للمؤمنين ماذا يقولون في الحوار معهم: قولوا: صدّقنا بالقرآن الذي أنزل إلينا، وصدقنا بالتوراة والإنجيل اللذين أنزلنا إليكم، ومعبدونا ومعبدكم واحد، ونحن له خاضعون بالطاعة له.

٤٧ - ومثل ذلك الإنزال للتوراة وغيرها أنزلنا إليك - أيها الرسول - القرآن، فاليهود والنصارى الذين اتبّعوا الحق يصدّقون بالقرآن، وكذلك هؤلاء من العرب الذين دعوتهم يصدّقون به. وما يكذب بالقرآن والمعجزات إلا الذين أصرّوا على الكفر.

٤٩ - وما كنت - أيها الرسول - تقرأ كتاباً، ولم تكتب شيئاً بيده قبل نزول القرآن عليك، ولو كنت تقرأ وتكتب لشك في ذلك الكفار المتمادون في الباطل. وليس الأمر كما حسب هؤلاء الكفار، بل هو قرآن فيه آيات واضحة الدلاله على الحق، محفوظة في صدور أهل العلم من المؤمنين، وما يكذب بهذه الآيات والمعجزات إلا الذين أصرّوا على الكفر.

الفوائد والاستنباطات:

١ - وجوب اتّباع الأحسن في المجادلة. وهذا يؤخذ من الحصر في الآية

الكريمة، فلا تجادلواهم إلا بالتي هي أحسن، والنّهي يقتضي التّحرير، فإذا حُرّمت المجادلة إلا بالأحسن فمعناه وجبت المجادلة بالتي هي أحسن.

٢ - ينبغي للمرء أن يعرف ما عند خصمه؛ ليجادله به. وما في القرآن كافٍ للرد عليهم.

٣ - يجب في المجادلة اتباع ما يكون أشدّ إقناعاً، ومبطلاً لحجّة الخصم، من قوله: ﴿هٗ أَحْسَنُ﴾.

٤ - الظالم في المحاجة لا يجادل بالتي هي أحسن؛ لقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾.

٥ - إثبات أنّ التوراة والإنجيل والقرآن كلام الله.

٦ - من قريش منْ آمن بالقرآن، لقوله: ﴿وَمَنْ هَتَّوْلَاءَ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾، فيكونون حجّة على الذين لم يؤمنوا.

٧ - رسول الله ﷺ لا يقرأ ولا يكتب قبل أن ينزل عليه القرآن.

٨ - قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين - رحمه الله -: «إنّ أسلوب القرآن كما يُبِطلُ الشُّبهة معنى يُبْطِلُها لفظاً، يعني باللفظ والمعنى؛ لأنّ ﴿بِلَّ﴾ للإضراب الإبطالي، وليس الانتقالي». (تفسير القرآن الكريم: ٦/٥٦١).

٩ - الجحد بالآيات ظلم، والإقرار بها عدل.

وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ ءَايَاتٌ مِّنْ رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا أُلْأَيْتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ
 ٥٠ أَوَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتَلَوَ عَلَيْهِمْ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةٌ
 وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٥١ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيِّنًا وَبِئْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي
 أَسْمَانَوْتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَطْلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أَوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ٥٢
 وَسَعَجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجْلُ مُسَمَّى لِجَاهِهِمْ الْعَذَابُ وَلِيَانِيْنَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ٥٣
 يَسْعَجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنَ جَهَنَّمَ لِمُحِيطَةٍ بِالْكَافِرِينَ ٥٤ يَوْمَ يَغْشِيْهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ
 تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ٥٥

التفسير:

٥٠ - وقال هؤلاء الكفار بسفاهة: هلاً أنزل على محمدَ معجزات وحججٌ من ربِّه! قل لهم: إنما أمرُ هذه المعجزات عند الله، لا يقدر على الإتيان بها غيره، إن شاء أنزلها، وإن شاء منعها، وإنما أنا نذير من الله أبين لكم طريق الهدایة، وأحدّركم من الغواية.

٥١ - يذكر الله تعالى عليهم موبخاً لهم: أهل مكفر المشركين أننا أنزلنا عليك هذا القرآن يقرأ، فيقرئ أسماعهم؟ إنَّ في هذا القرآن المعجز لِنِعْمةً وذكرى لقوم ثابتين على الإيمان بالله تعالى.

٥٢ - قل - يا أيها الرسول - لهؤلاء المكذبين: كفى أن يكون الله سبحانه شاهداً على صدقِي أنِّي رسوله، يعلم ما في السموات السبع والأرضين السبع، فلا يخفى عليه شيءٌ فيهما، والذين صدقو بالشرك وشياطين الإنس والجن، وكذبوا بالله تعالى. أولئك البداء عن الحق هم الخاسرون؛ لأنَّهم آثروا الكفر على الإيمان.

٥٣ - ٥٥ - يطلب منك زعماء الشرك - أيها الرسول - أن ينزل الله عليهم العذاب تكذيباً لك ومكرأً بك، ولو لا أنَّ الله قادر لعذابهم وقتاً محدوداً لَنَزَل بهم العذاب حين طلبوه، وقسمًا سيأتيهم فجأةً وهم لا يشعرون بوقت مجده، يطلبون منك إيقاع العذاب بهم في الدنيا. ومحلُّ العذاب في نار جهنَّم يوم

القيامة محيط بهم، من فوق رؤوسهم، ومن تحت أقدامهم، ويقول الله تعالى لهم توبيخاً: ذُوقوا جزاء ما كتمن ترتكبون من الجرائم.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - المتعنت مكابر، فإنهم قالوا: ﴿لَوْلَا أَنِّي عَلَيْهِءَا يَدْتُ مِنْ رَبِّهِ﴾ مع أنَّ الآيات قد جاءتهم.
- ٢ - الإشارة إلى شرف هذا القرآن؛ فقد كان مكتوباً في اللوح المحفوظ، وفي الصُّحُف التي بأيدي الملائكة.
- ٣ - فضيلة الإيمان؛ إذ تتمُّ به الرَّحْمَة والذكرى في القرآن.
- ٤ - الحوادث مقدرة عند الله تعالى في عِلْمِه، لقوله: ﴿لَوْلَا أَجْلٌ مُسْمَى﴾.
- ٥ - شهادة الله ﷺ تكون بالقول والفعل: أمماً بالقول فإنَّ الله تعالى يقول للنبي ﷺ: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهُدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ يَعْلَمُهُ، وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهُدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦]، وأمماً بالفعل فإنَّ تمكين الله تعالى لرسوله ﷺ في الأرض، ونصره إياها، وخذلان أعدائه، أكبر شهادة على أنه صاحب الحق.
- ٦ - تعذيب الكُفَّار جسمي ونفسي: الجسمي ما يذوقونه من أنواع العذاب، والنفسي هو التَّوبِيعُ الذي يُوجَّهُ إليهم.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَسَعَهُ فَإِيَّنِي فَأُبَدِّعُونَ ﴿٥٧﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَاقَةُ الْمَوْتِ إِنَّا نُرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوَّبُهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرْفًا تَجْرِي مِنْ تَحْنَّهَا الْأَنْهَرُ خَلِيلِنَ فِيهَا نِعَمٌ أَجْرُ الْعَمَلِينَ ﴿٥٩﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٦٠﴾ وَكَانُوا مِنْ دَائِرَةِ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا أَللَّهُ يَرْزُقُهَا وَلِيَاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَلِيَنْ سَأَلُوكُمْ مَنْ مِنْ خَلْقِي أَسْمَوَتُ وَالْأَرْضَ وَسَحَرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولُنَ اللَّهُ فَإِنَّ يُرَفَّكُونَ ﴿٦٢﴾ اللَّهُ يَسْطُطُ الْرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ يُكْلِ شَوَّعَ عَلَيْهِ ﴿٦٣﴾ وَلِيَنْ سَأَلُوكُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنْ السَّمَاءِ مَا مَأَةً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لِيَقُولُنَ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكُّرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾

التفسير:

٥٩ - ٥٦ - يخاطب الله تعالى المؤمنين خطاب تشريف: يا عبادي إن

كنتم لا تَقْدِرُونَ على إقامة شعائر العبادة لله تعالى في بلدكم، فها جِرُوا إلى بلد آخر؛ لِتُقيِّموا الدين بإخلاص العبودية لله تعالى، والموت لا بد أن ينزل بكم، ثمَّ ترجعون إلى ربِّكم؛ ليجاريكم على إيمانكم وأعمالكم الصالحة في الجنة، بإنزالكم بالغرف العالية بين البساتين النضرة التي تجري من تحتها الأنهر، ماكثين فيها أبداً. وَنِعَمْ هذا المقامُ الرفيع جزاءُ العاملين بطاعة الله تعالى، الذين من صِفتِهم الصبرُ على الثبات في العبادة، وعلى ما يصيّبهم من الابتلاء، وعلى ربِّهم يعتمدون. عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ غَرْفَةً يُرَى ظَاهِرَهَا مِنْ بَاطِنِهَا، وَبَاطِنَهَا مِنْ ظَاهِرِهَا، أَعْدَهَا اللَّهُ لِمَنْ أَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَلَأَنَّ الْكَلَامَ، وَتَابَعَ الصِّيَامَ، وَصَلَّى وَالنَّاسُ نِيَامًا». (أخرجَه الإمامُ أحمدُ، المسندُ ٣٤٣/٥، وابنُ حبانَ في صحيحِه (الإحسان) ٢٦٢ برقم ٥٠٩) قال محقق الإحسان: إسناده قوي. وأخرجه الحاكم (المستدرك ٣٢١/١) من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً بنحوه. وصححه ووافقه الذهبي.

٦٠ - وكثير من المخلوقات التي تَدِبُّ على وجه الأرض لا تستطيع جمْع رزقها، وتحصيله، وإنْ حملَه، إلا بما قَدَرَ الله لها من الرزق، فهو سبحانه وحده يُقْيِضُ لها رِزْقَها على ضعفها، ويُسِّرُه عليها، فيرزق كل مخلوق ما يصلحه، وهو سبحانه السميع للأقوال، العليم بالأفعال والأحوال.

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه: «لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوْكِلِهِ، لَرُزِقْتُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ، تَغْدُو خَمَاصًا وَتَرُوحُ بَطَانًا». (أخرجَه ابنُ ماجَهَ، السننُ ٤/٥٧٣ برقم ٢٣٤٤ - كتاب الزهد، باب في التوكل على الله، وأخرجه أَحْمَدُ (المسند ١/٣٠). وصححه الحاكم (المستدرك ٤/٣١٨). وصححه الألباني، السلسلة الصحيحة برقم ٣١٠).

٦١ - قسماً إن سألت - أيها الرسول - المشركين: مَنْ أَبْدَعَ خَلْقَ السموات والأرض، وذَلَّ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يَجْرِيَانَ لِمَا فِيهِ النَّفْعُ لِلْمُخْلُوقَاتِ؟ ليقولُونَ: خَلَقُهُنَّ اللَّهُ وَحْدَهُ، إِذَا أَفَرُوا بِتَوْحِيدِ الْرَّبُوبِيَّةِ، فَكَيْفَ يُضَرُّفُونَ عَبَادَتِهِ سَبَّاحَهُ وَحْدَهُ؟

٦٢ - يُكْمِئُنَ اللَّهُ تَعَالَى الْعَبَادَ أَنَّ الْأَرْزَاقَ بِيَدِهِ سَبَّاحَهُ، فَيُوَسِّعُ الرَّزْقَ

لِمَنْ يشاء من عباده، وَيُضَيقَ على مَنْ يشاء، وفي الحالتين ابتلاء. إنَّ الله تعالى بكلٍّ شيءٍ من الأشياء علِيمٌ.

٦٣ - يُقسِّم الله تعالى مؤكِّداً أنَّ الْكُفَّارَ يُقْرُونَ بِتَوْحِيدِ الرَّبُوبِيَّةِ، فَإِنْ سَأَلْتُهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّحَابَ مَاءً فَأَنْبَتَ بِهِ الْأَرْضَ بِالنَّبَاتِ مِنْ بَعْدِ جَدْبِهَا؟ لِيَقُولُنَّ: اللَّهُ وَحْدَهُ، قَلْ: الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى ظَهُورِ الْحُجَّةِ وَالاعْتِرَافُ بِالْحَقِّ عَلَى أَسْنَتِهِمْ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ اتِّبَاعَ الْحَقِّ.

الفوائد والاستنباطات:

١ - شرف الإيمان؛ إذ جعل الله تعالى هؤلاء المؤمنين عباداً له، وإضافتهم إلى الله بالعبودية تشريف لهم.

٢ - وجوب محاسبة الإنسان نفسه؛ لأنَّ الله تعالى تَوَعَّدَ بِأَنَّهُمْ يرجعون إليه.

٣ - مَنْ ترَكَ شَيْئاً لِللهِ عَوْضَهُ اللهُ خَيْراً مِنْهُ، فهُؤُلَاءِ ترَكُوا بِلَادَهُمُ التِّيْضِيقَ عَلَيْهِمْ فِيهَا، فَعَوْضَهُمُ اللهُ بِلَادَهُ لَا يَجِدُونَ فِيهَا هَذَا الضِيقَ، بَلْ يَجِدُونَهَا ذاتَ سُعَةٍ.

٤ - فضيلة الصبر؛ إذ أثني الله على الصابرين الذين صبروا.

٥ - كفاية الله ﷺ؛ لأنَّه لا يُتَوَكَّلُ إِلَّا عَلَى مَنْ هُوَ كَافٍ، فَمَنْ لِيْسَ بِكَافٍ فَهُوَ غَيْرُ أَهْلٍ لِأَنَّهُ لا يُتَوَكَّلُ عَلَيْهِ.

٦ - إقامةُ الْحُجَّةِ عَلَى الْخُصُمِ حَتَّى يُذْعَنَ وَيُقْرَأَ.

٧ - سَفَهُ الْمُشْرِكِينَ بِاللهِ فِي عبادتِهِمْ؛ إذ يُقْرُونَ بِرَبُوبِيَّتِهِ، ثُمَّ يُنْكِرُونَ ألوهِيَّتَهِ، وَكَانَ مِنَ الْعُقْلِ أَنَّ مَنْ أَفَرَّ بِالرَّبُوبِيَّةِ أَفَرَّ بِالْأَلوهِيَّةِ.

٨ - في الآية (٦٠) إخبار مستقبلٍ بِأَنَّ الله ﷺ هو الرَّزَّاقُ فِي الْمَاضِي وَالْحَاضِرِ وَالْمُسْتَقْبَلِ.

﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوَ وَلَعْبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَاةُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾٦٤ فَإِذَا رَكَبُوا فِي الْفُلُكِ دَعَوْنَا اللَّهَ مُخْصِصِينَ لَهُ الْمُلِّينَ فَلَمَّا نَجَّبْنَاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾٦٥ لِيَكْفُرُوا بِمَا أَتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمْتَعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾٦٦ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا إِمَّا نَحْنُ نَحْنُ نَحْنُ حَرَمٌ أَفَإِلْبَطِلُ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾٦٧ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوَيًّا لِلْكَافِرِينَ ﴾٦٨ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَهُنَّ يَنْهَمُونَ شُبَّلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾٦٩﴾

التفسير:

٦٤ - يُخبر الله تعالى عن حقاره الدنيا وزوالها، وأنها لا دوام لها، وغاية ما فيها لهو ولعب بما فيها من المللّات والشهوات. وإن حياة الدار الآخرة لهي الحياة الحقيقة الدائمة، لو كانوا يعلمون ذلك لما استحوذوا الدنيا على الآخرة.

٦٥ - ٦٦ - ومن صفات الكفار أنهم يجحدون النعم، فإذا ركبوا السفن في البحر، واعتراهم خطر الغرق، لجوئوا إلى الله تعالى بالدعاء الخالص له دون غيره، فلما أنقذهم من الغرق، وزال عنهم الخطر، إذا هم فجأة يعودون إلى شركهم بالله! من أجل أن يجحدوا النعم التي رزقهم الله إليها، وليتمتعوا بالحياة الدنيا بباقي أعمارهم، فسوف يعلمون عاقبة أمرهم.

٦٧ - أولم يعلم كفار قريش أننا جعلنا مكة لهم حرماً أميناً على النفس والمال، والناس من حولهم خارج الحرم يُتَخَطَّفُونَ بالقتل والسببي والنهب؟ بعد هذه النعم العظيمة هل يؤمنون بالأصنام والأوثان، ويُجحدون بنعيم الرحمن؟

٦٨ - ولا أحد أظلم ممن اختلق على الله الكذب، فزعم أنَّ له شريكاً، أو كذب بالقرآن الحكيم والرسول الكريم حين جاءه. ألم يعلموا أنَّ نار جهنم مصير هؤلاء المكذبين؟ والاستفهام تقرير لإقامتهم في نار جهنم.

٦٩ - والذين جاهدوا في حقنا من أجل نشر الإسلام، قسمًا سنهم ليهم إلى طرق الخير، ورضوان الله في الدنيا والآخرة، وإن الله تعالى لمع الذين أحسنوا في أقوالهم وأفعالهم بالنصر والعون.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - اعتراف المشركين ضمناً بأنَّ آلهتهم لا تنفعهم، ولو كانوا يعتقدون نفعها لدعوها في هذه الحال.
- ٢ - سُفهٌ مَنْ يجعل النِّعَم سبباً للأشر والبطر، فإنَّ هذا فيه من مشابهة المشركين ما هو ظاهر؛ لأنَّ الواجب على مَنْ أنعم الله عليه نعمة أن يزداد عبادةً لله ﷺ؛ والعبادة من الشكر.
- ٣ - الدنيا لَعِب ولَهُو للكفار واللاعبيين، لكنَّها ابتلاءٌ وعملٌ وجُدٌ عند المؤمنين.
- ٤ - الحياة الحقيقية الدائمة هي في الآخرة، لأنَّها لا انتهاء لها، خلاف الحياة الدنيا الفانية.
- ٥ - الشعور بالأمن نعمة عظيمة من الله، لا بُدَّ أن يقابلها المؤمن بحمد الله وشكره.
- ٦ - أشدُّ أنواع الظلم قبحاً الافتراء على الله، أو التكذيب بالحق، أو تكذيب الرسول.
- ٧ - المجاهدون صادقون محسنون، يُكْرِمُهم الله بال توفيق لُسُلِّ الخير، وطُرُقِ الفلاح.
- ٨ - في الآية (٦٩) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ الله سيهدي إلى سُلِّ الخير، ويُثبِّت على الصِّراط المستقيم المؤمنين الذين جاهدوا أعداء الله، وصبروا على الفتنة والأذى في سبيل الله. وفيها إخبار مستقبليٌّ آخر والبشرة لِمَنْ أحسن مِنْ خَلْقِ الله بتَأييدِ الله ﷺ بالنصرة.